المهيمنات الجندرية في الرواية النسوية العراقية الجديدة

رواية (قسمت) للكاتبة حوراء النداوي

أنموذجا

Gender Dominances in the new Iraqi feminist novel
The novel (kismat) by Hawra Al-Nadawy
Model

د. هاني صبري آل يونس
جامعة الحمدانية – كلية التربية–
قسم اللغة العربية

Dr. Hani Sabry Al Younis
University of Al-Hamdaniya - College of Education
department of Arabic language

dr.hani.alyounis@uohamdaniya.edu.iq

الكلمات المفتاحية: الرواية النسوية – قسمت – شيرمينا – الثيمات الجنوسية – الأشباح– بركة

key words: Feminist Novel- kismet- Shermina- Gender Themes- Ghosts- Baraka

الملخص

ليس من السهل القول: أن البحث عن المغيب الجندري في الرواية النسائية العراقية الجديدة قد يكون مختلفا لسبب بسيط هو إن هناك ثيمات جنوسية غائرة في وعي الإنسان العراقي عموما لا يقبل الجدال طالما أن الأمر يتعلق بتكييفه إزاء ما يشعر .

ويعني الجندر بالصورة التي ينظر إليها المجتمع إلينا كنساء ورجال، والأسلوب الذي يتوقعه في تفكيرنا وتصرفاتنا ويرجع ذلك إلى أسلوب تنظيم المجتمع، وليس إلى الاختلافات البيولوجية (الجنسية) بين الرجل والمرأة.

رواية (قسمت) للروائية العراقية المغتربة حوراء النداوي[1]، حكاية قص جندري لأنثى تعيش في مجتمع يجعلها فيه الرجل تميل إلى الخوف من كل شيء من الموت الذي هو الهاجس الأول منه هو الرجل المنهك بعيدا فيه عن أتراح البيت والعائلة من تلك الأشباح الأزلية التي ما انفكت تداعب يومها من أوله إلى آخره، فضلا عن عزلة اختلقها لها الرجل كي تتبادل معه الادوار في حياة قد لا ينوء بحملها وثمة جندرية اجتماعية هناك تضع لها خطوطها الحمراء في الكلام واللباس والمأكل والمشرب .

[1] منشورات الجمل ، بغداد – بيروت ، ط١ ، ٢٠١٨.

Abstract

It is not easy to say: that the search for the gender hidden in the new Iraqi women's novel may be different for the simple reason that there are deep-rooted gender themes in the consciousness of Iraqis in general, which are indisputable as long as it is a matter of adapting them to what they feel.

Gender means the way society views us as women and men, and the way it expects us to think and act. This is due to the way society is organized, not to the biological (sexual) differences between men and women.

The novel (kismat) by the Iraqi expatriate novelist Hawra Al-Nadawi, a story of a gendered story of a female living in a society in which the man tends to fear everything from death, which is the first obsession of him is the exhausted man far from the comforts of the home and family from those eternal ghosts that have been flirting with him. Her day from beginning to end, as well as the isolation that the man created for her in order to exchange roles with him in a life that may not lead to her pregnancy, and there is a social gender there that sets its red lines for her in speech, dress, food and drink.

أنوات جندرية

رواية (قسمت) حكاية قص لامرأة غريبة تعيش عالما فرضه عليها المجتمع لكنه فائض بفنتازيا متحركة حيث لا يمكن لأحد أن يذكرها إلا بالرجل بوصفه إنجازا جندريا لا يمكن أن يتأتى لأحد بسهولة : **((كانت هي تمقت العزاء وتلهث من أجل وقت يمكنه فيه أن تخلو بنفسها))** [١]، فضلا عن تمكن الارادة في التعلق بإنجازات الحضارة المرتسمة في أنوات ذاتية جندرية تنشط الوعي الشخصاني للتفكير بأن هناك ثمة معطيات فكرية ممزوجة بجغرافية واهية تشجع على التمسك بإرهاصات أنوثة تريد الحفاظ على المنجزات المتحققة فضلا عن الإيمان الكامل بحقيقة الفوز بوصفه ملاذا أخيرا وهي حقيقة نفسية تعتمل في مكامن أنثوية متحركة لدى المرأة حتى لو كانت طفولية : **((ثم انطلقت بسرعة وألقت برأسها على الفرش ثم قلبت جسدها الصغير رافعة ساقيها النحيلتين ليظهر لباسها الداخلي الذي يغطيها جتى الفخذين وليكاد ثوبها ينزع عنها كتمت ضحكتها وهي تلهث ثم قررت أن تعيد الكرة))**[٢] .

جنوسية الانثى تترك للروح فيها حيزا كبيرا من الأمل كي تتعلق بأوهام الخلاص، لذلك جاءت الأنثى في الرواية تعيش فضاء مفتوحا للانبهار بمتابعة الأشباح والجن وتلك القطط السوداء التي كانت وما تزال تموء في تلك البيوت الكبيرة ووفي مشهد جندري عقلي تجعل من الممكن للإنسان أن يعيش في وداعة مع تلك الأرواح وتتبادل معها الادوار التي اقترحتها الكاتبة بحسب معطيات سردية مقصودة .

لذلك فإن الكاتبة تحاول عيثا أن تتشبث بكل ما من شأنه إن يحافظ على هذه المكتسبات في تخطي حدود التشكيل المباشر فهي تدرك أن مرجعيات جندرية متوزعة على عموم خارطة السرد تبدو أكثر التصاقا بروح المتلقي، وينال أودها القارئ بعد جهد جهيد وتضحية متوقعة تجعله يتدرع بمخرجات هذه الثيمات القصصية كلما وجد أن ملاذات هذه الثيمات قد بدأت تتخلل في نفسه بفعل مؤثرات داخلية أو خارجية .

فكيف إذا كانت هذه الثيمات الدفاعية مزيجا من جنسانيات اجتماعية ودينية ونزعات نفسية قاتمة سببها صراع شامل تتعارك على افتعالها بيئة اجتماعية غريبة تتخذ من بغداد المدينة القديمة المنفتحة على درابين متداخلة تجمع بين الواقع والخيال لتكون الفضاء الجندري لأنثى تتمنى الولوج في وهم خرائط تحاول أن تحيل المدينة إلى تابوهات جندرية يستحكم عقدتها رجل مولع بالخرافة يستقدم الجن والأرواح والأشباح في التصدي ومن ثم المفاعلة وأخيرا الانتشار .

---

[١] الرواية: ١٤.

[٢] الرواية: ١٨.

التضاريس الجندرية

رواية (قسمت) لحوراء النداوي رواية أرض تضاريسها جندرة إنسانية شاخصة ومعالمها الفكرية ملوثة بسلطة رجولية قاهرة تستطيع أن تعلن سطوتها النسوية بحرية ومتى ما أرادت ذلك : ((**لكن بعد أن شبت وصار لها صدر يترجرج وخاطب ينتظر باتت كلمة كهذه عبئا على قلب شازي التي ما لبثت تلمح باستيائها بين الحين والآخر ، فتستنكر بصوتها الرفيع كأنها تسخر غير متعمدة**))[١] .

إنها قصة وطن ببيوته الكبيرة موبوءة بالأشباح والخوف ، والموت يلوح به لمريديه ذلك النهر الغريب رجالا ونساء ، والسائلون من مطاردي (بشت كوه – ما وراء الجبال) المترفين في حضارة بغداد تأخذهم العزة بالأثم حتى تصير عندهم سيدة حب أولى، هي عشتار آلهة الخصب والنماء تنتقل إلى العالم السفلي كي تمارس الرذيلة، في كل الأحوال عندهم بغداد أنثى كبيرة تدرج في الخطيئة حتى أذنيها : ((**لأن أجساد رجالهم القوية كانت تزخر بطاقة يقيدها الشتاء الأبيض الملعون كانوا يلتفتون بكل حواسهم وطاقاتهم المبكوتة إلى نسائهم فينفثون سمومهم في أرحامهم ليفرخن أطفالا كثرا لتخفف عزوة الأولاد من كآبة السبات الذي يحيق بهم في كل عام**))[٢] .

والخطيئة هنا ليس بمعناها المتعارف انما هي الخطيئة الكبرى (آدم وحواء) في أرض لم تفضها قوانين الجندرة التي بذرت هذا الأنسان في بيئة مغتربة تسلب حتى روحه، رواية (قسمت) ايديولوجيا جندرية إنسانية غير بيولوجية فكرية شخصانية تنقسم على موضوعات مختلفة .

المثيرات الجندرية

من الجدير بالذكر ، إن هذه هي الأدوار المحددة اجتماعياً لكل من الذكر والأنثى، وتلك الأدوار التي تحتسب بالتعليم تتغير بمرور الزمن وتتباين تبايناً شاسعاً داخل الثقافة الواحدة و أحيانا من ثقافة إلى أخرى .

وفي الحقيقة فإن هذه الادوار قد تستلب الحقوق المنجزة للذكر والأنثى حتى يصادر حرية الفرد ويخرب المنجزات الإنسانية الكبرى بشكل قسري وهو أساس الفكر الحدثي الذي يحفز بؤر التشكل السردي للانتشار بين النزوع إلى جغرافية المكان وجندرة نفسية تتداعي في الشخوص والاماكن والأسماء واشباح تتقافز هنا وهناك من جهة وبين مقدسات جنوسية

---

[١] الرواية: ١٩.

[٢] الرواية: ٢٥.

حمراء باتت تتحرك في لوحة التشكيل على نحو يدعو القارئ إلى الخضوع لجانحة إنسانية ذكورية موبوءة بأمراض شتى من جهة أخرى.

فالأنثى تتحوّل إلى امرأة خاضعة ضمن واقع ذكوري متسلّط تشكّلت شخصيته انطلاقاً من مفهوم السلطة التي وضعت ملامحها ومثيراتها الجندرية في سلطة اقتصادية واجتماعية عبر العصور، ولذلك صرخت سيمون دي بوفوار "إن الشخص لا يولد امرأة، بل يصبح امرأة".

لذل تجد المتلقي في الرواية وفي لحظة غير متوقعة يذهب إلى تتبع مخيال أنثى محطمة تفتقد كل قيم البقاء في ظل جندرة فحولية تحاول أن تؤسس لمثيراتها الخاصة حتى لو كان على حساب مغادرة الأنثى بل تدفعها بكل براءة إلى عام آخر قد تستسيغه هي لأن في هذا العالم المنزوي قد يتحقق لها كل أحلامها المؤجلة على يد (بركة البصار) الذي يدعوها إلى الانخراط في الذكورة والأنوهة وهو علم ربما كان غريبا عليها لكنه جميل وملوث بأقانيم من الدجل والشعوذة ترتسم في مخيلتها أن وراء كل ذلك رجل محب يوفر لها الخلاص في وعاء من ذهب ، إذ يكيَفها أن تعيش في بيوت تملؤها الرطوبة كي تكون قادرة هي وحدها على اكتشاف قوانين الانوثة في زوايا فحولة طافحة غالبا ما ينهكها الحزن .ويقتسم سكانها الجهل نهرا مترعا من الأسى يتجرعه القاصي والداني .

١- الجندرة النفسية

إنّ فلسفة الجندر تتنكّر لتأثير الفروق البيولوجيّة الفطريّة في تحديد أدوار الرجال والنساء، وتُنكر أن تكون فكرة الرجل عن نفسه تستند إلى واقع بيولوجي وهرموني. وهي تنكر أي تأثير للفروق البيولوجيّة في سلوك كلٍّ من الذكر والأنثى. وتتمادى هذه الفلسفة إلى حد الزعم بأنّ الذكورة والأنوثة هي ما يشعر به الذكر والأنثى :**((بعد أن تغربت حياته تماما فهجر أسرته وتحول من رجل مكتمل الرجولة إلى خنثي بمظاهر جنسية صعبة التعريف))**[١].

إذ سرعان ما يتحول الإنسان العادي بفعل فاعل شخصاني أو مجتمعي يرشح هذا الشخص لإحساسه بأهمية القدرة على تحقيق ذلك في نفسه لتبوء هذه المكانة وأحيانا تدخل قوى الطبيعة المخفية في تشكيل أيقونة الرجل (بركة – البصار) في الرواية : **((وفي أثناء هيام روحه قابلت مجموعة من الجن فعقدوا معها صفقة حيث اشترطوا ان يخدمهم بركة مقابل ان يساعدوا روحه الهائمة على العودة إلى جسدها قبل أن تفارقه تماما وتنتقل إلى الموت))**[٢] . ولأن مجتمع الرواية الشاذ والمنهك بالأمراض والعلل النفسية الذي يصور أعتق أحياء بغداد وفي ذلك الزمان قد تجد الأنثى ضالتها اينما كانت، ولا بأس أن يكون أنثى في

---

[١] الرواية: ٤٢.

[٢] الرواية: ٤٢.

شكل رجل فهذا قد يشعرها بالانجذاب والأمان في آن واحد ، حتى كان ذلك مناقضاً لواقعها البيولوجي لذلك طرحت الروائية حوراء النداوي شخصية بركة- البصار الجامعة للذكورة والأنوثة في جندرة نفسية واضحة تخترق حدود العقل الواعي بوصفه المعادل الموضوعي لحركة الشخوص النسائية في الرواية :((**بالرغم من الجرآة التي عرفت بها شازي إلا أنها كانت أجبن من أن تخالف تعليماته وأذكى من أن تعاند الجن والعفاريت بالإضافة إلا أن بركة لم يسبق أن رفض لها طلبا من طلباتها المجانية**)) [١].

فهذه الشخصية مريبة تمتلك قوى خارقة يمكن أن يظهر في أي مكان ويراقب حركة الناس والأشباح :((**دار بركة ببصره مستكشفا فوقعت عيناه على فرصت التي اختفت خلف قيم حرك يده قائلا :**

لماذ أخرتم قسمة البنت ؟ زوجوها قبل أن يطرأ حزن جديد

وأكمل متمتما بنغمة عالية :

التأخير لن يغير المكتوب))[٢] .

٢- الجندرة الدينية :

إن الجندر قد ارتبط بالعلوم الاجتماعية والإنسانية بصفة خاصة . وفق هذا المفهوم، تسير الرواية سيرا طبيعيا في تشكيل بناء شخصيتي (الملا = بركة) ورما كان بركة هو الوجه الحركي أو اليد الضاربة للملا غلام علي، وكيما تكون هذه الشخصية أكثر تقمصا لتضاريس الشخصية العراقية السلبية والقلقة يحولها السارد إلى أيقونة جندرية فالـ (**ملا**) يحاول إزالة الفروق القومية عند نظر العامة .

رجل دين له قيمة عليا لذلك فهو البؤرة التي تنطلق منها كل شخوص الرواية وبيت الملا هو المركز الديني لوقوع الأحداث الغريبة والانفعالات النفسية المضطربة كلها ، وأخير هو الملاذ الأخير لكل هؤلاء الكادحين الهاربين من جور الطغاة والولاة الباحثين عن الأمان في ظل دوحة الأنبياء والأئمة الأطهار : ((**وقد أدى إلى ترك هؤلاء الراغبين بالإصلاح موطنهم الأصلي في بشت كوه واللجوء إلى بغداد هربا من بطش الوالي ولوذا بالأرض المباركة أرض العراق أرض الأنبياء أرض الأئمة الأطهار**))[٣].

---

[١] الرواية : ٤٤.

[٢] الرواية : ٤٥.

[٣] الرواية: ٤٢.

لأجل ذلك فالحدث مرتسم بدقة في تصوير فعل الأداء للمرجعية البيئية الأولى ، فالجندرة الذاتية لدى بركة البصار المبنية على الشعوذة والدجل تعمل عملها في عموم سير حركة الفعل على اعتبار أنها شعيرة دينية وهي ما تمنحه هذه الهيبة وذلك التقبل ، فبركة ذلك الانسان المؤمن الهادئ المحب لأهله ولعائلته ينقلب إلى شخصية مزدوجة لها القدرة على اللعب مع الأشباح وتسخير الجن وترجمة افعال النساء وأوصافهم وحركاتهم فضلا عن أنه قادر على تفسير احلامهم بالطريقة التي هو يراها :((**خرزة لجذب أعين الرجال أخرى لإثارة غيرة بنات المنطقة خرزة لجذب رضا اليها ومصالحته وخرزة أخرى لإبعاد أشباح دار الملا عنها**)) [١].

بركة يتنقل في أحياء ودرابين منطقته متنكرا في زي امرأة ترتدي عباءة سوداء قاتمة ويبدو أن الصنعة الروائية اقترحت هذا التشكل البنائي للسرد كي يسوغ لبركة حرية الانتقال بين النساء ولا سيما بعد أن استقر في بيت (دا) وهي تعني الأم والجدة في اللغة الكردية وهي الشخصية المركزية المتسلطة في عموم الرواية حركة الأشياء تبدأ من بيت الملا ومن بيوت جيرانه من اليهود والمسيحيين واختفاؤها وابتداؤها أي (الأشياء) كلها كانت تحدث على يد بركة وفي بيت الملا غلام علي .

((**وكان أمرا عاديا ومقبولا أن يزور بركة الدور في أثناء غياب الرجال وأن يقتحم المنازل بغتة بدشداشته القاتمة وعصابة الحبر السوداء التي يلفها حول رأسه وقامته الفارعة كان يبدو مثل خيال متحرك للموت**))[٢] .

النساء يقصدنه من كل مكان حتى يحقق لهن غاية أو يقرب أمنية وفي أحيان أخرى كان يصنع لهن تمائم يعلقنه حول رقابهن طمعا في جلب الحبيب أو التقرب إلى الزوج ونيل رضاه ويمكن أحيانا أن يحتك بالرجال لصالح النساء على الرغم من شعوره التام بأنه كان قد فقد كثيرا من قيم الرجولة التي كان يتمتع بها من كثرة اختلاطه بالنساء .

إن اسباغ هذا الدور المرجعي على شخصية بركة ولا سيما لدى النساء يمنح المخيال الروائي بعدا نفسيا معينا يجعل القارئ ولا سيما الأنثى تندمج بسهولة على نحو معين مع أفعال هذا الكائن ولا سيما في فترة زمنية معينة كانت بغداد تعيش عوالم من الرعب والتخلف والخوف من المستقبل : ((**يركة هل من تغيير قريب في رزقي ، بركة كل رفيقاتي تزوجن إلا أنا بركة هل سيتزوج زوجي علي ، ارجوك بركة أرجوك**))[٣].

---

[١] الرواية : ٤٢.

[٢] الرواية : ٤٤.

[٣] الرواية : ٩١.

فحوراء النداوي هنا سوغت للمتلقي طرقا وخيارات كثيرة لتقبل هذه الشخصية ولاسيما النساء منهم، ولغرض تحقيق مزيد من المقبولية همشت هذه الشخصية في عقول المثقفين وتركت الوعي في ذراه متقبلا لدى العامة من الفقراء والنساء الغافيات في ظل رجولة خافتة أقل ما فيها أنها لا تحقق قدرا ولو ضئيلا مما كن يرغبن فيه من حياة مترفة سعيدة بأنجازات رجولية تفتح الباب أمامهن واسعا لأمومة خصبة لذلك كن يلجأن إلى بركة كي يمنحهن قليلا من هذا الأمل الذي بات في نظرهن بعيدا جدا

٣- الجندرة القومية

لا شك أن الجندرة القومية لا يمكن تشخيصها بتعريف واحد ومحدد كما هو الشأن في أغلب فروع الجندرة لكن يمكن تلمس بعض الضوابط التي تذهب الى تعديل العلاقة بين النوعين مارستها الرواية في التوجه إلى المتلقي .

فالذي يتيح للعمل الروائي التعامل الواعي مع المتلقي على نحو سلس وراق، هو قدرة الرواية على التمفصل في الأحداث الفرعية الدقيقة ومن ثم التوغل بعيدا في الأحداث الإنسانية الموغلة في المصادرة والاستلاب ولاسيما ما يتعلق منها بالجانب القومي. حوراء النداوي في رواية قسمت تقدم صورة باهتة تصدم القارئ أو المتلقي في تبنيه تصورا مختلفا عن مجتمع تملكه التعلق بالقيم العشائرية حتى في ظل حضارة ضاربة في القدم لكن من اجل الوصول إلى تسويغ منطقي لتسلط هذه القيم كان لابد من توفير تقانات سردية تتشكل في ضوء النوع الهارب إلى التشبث بالقيم القومية والأعراف والتقاليد وإلى الدجل بدل البحث عن فسحة من أمل ضال أو الدفع بالمرأة إلى أن تتبنى كل الخسارات الجندرية والفروقات البيولوجية بدل القليل من الحرية التي كان المجتمع البدائي يمنحها إياها، في الوقت نفسه يحظى الرجل بخيارات أكثر إرهاقا لشخصية المرأة، من أهمها ابتعاد المرأة عنه إلى درجة أن العلاقات الوردية قد تضمحل أحيانا لأسباب كثيرة منها انهماك الرجل بالعمل وتهالكه من أجل كسب لقمة عيش له ولعائلته ومنها ايضا هروب النساء وانشغالهن بأفكار ورؤى تتمحور حول إصلاح الحال حتى لو استدعى ذلك التعلق بافتراءات بركة الملوثة بالإحباط والخنوع إلى الخرافات والاستعانة بالأشباح وصور الموتى التي كانت تظهر للنساء وحدهن، وأحيانا ممارسة الموت بقوة وعنف لاسيما عندما تبطل معها كل الحلول المتاحة لدى الأنثى: **((غير أنها لم تمهلهم كثيرا ليستفهموا فبدرت بسرعة وببساطة إلى إلقاء الرضيع في النهر ثم قبل أن يفيق السهارى من المفاجأة أويفكر أحد منهم في أن يهرع نحوها كانت قد ألقت بالطفلة وبنفسها))**[١].

---

[١] الرواية : ٤٨.

النسيج السردي لهذا المشهد الجانبي لم يحك بدقة فكثيرا من خيوط الحدث متروكة لا يحكمها رابط عقلي ومنطقي سوى ما كان يقال أن قسمت كانت تعاني من قصور عقلي أو هذا هو الذي كان يتصوره المنطق الاجتماعي في طل قبلية قومية لا تخاف من أحد قدر خوفها من أنثى يمكن من خلالها أن يعتري الأعراف كثير من العهر، اسست الروائية هذه العلاقة في رواية (قسمت) في جو روائي مهيب تجر معها ولديها إلى حافة النهر في ساعة نفس قاتمة فيها شيء كثير من الإصرار الذي لم يكن يعرف له وجه إلا اضطهاد القوم والعشيرة والشعور بعدمية مفرطة في ظل أجواء عشائرية لا تؤمن أبدا بحق المرأة في الحياة : **((وفضل أن يطلق على طفلته الجديدة آنذاك اسم (بري) ويعني الملاك بدل اسم (عزت) الذي اقترحته زوجته))** [١].

تلك هي إرادة عجيبة تدفعها إلى إضاءة تلك البؤر السوداء في نفسها ولأنها أدركت أن النجاة لا يتحقق الأ بالتحليق في أجواء من الرهبنة الأزلية وأن الانتصار الذي تحلم به لا يتحقق إلا بالغور في تلك الأعماق البعيدة بعيدا عن الظلم والاضطهاد الذي عايشته في بيت الملا غلام علي: **((حتى أن الملا كثيرا ما سمع والده رحيم يردد إنه يخاف على أبيه من عقاب الله لأنه كان عونا للوالي على ظلمه هؤلاء البسطاء من الناس))** [٢].

إن اكتشاف لذة الوصول والاستمكان لها وتحقق الأنا في جندرة أنوية ، ولأنها كانت حريصة على توفير حياة حرة آمنة لأطفالها لم ترض إلا أن تسحبهم معها الى لجة قذفت الثلاثة بعيدا عن ظلم هؤلاء، حيث ضاعت الجثث في لحظة صنعتها الروائية بإتقان ظاهر وبخاصة في اعتمادها على تقانة الراوي المنفتح؛ لأن تقانة الصدمة تتيح للروائية تحقيق الغاية التي تصبو اليها في هذا العمل الروائي وهي بناء معادلة جندرية قد تميل في اتجاه معين على حساب اتجاه آخر، دون أن تدرك أن إخضاع هذا الفعل الروائي لأية مؤثرات عقلية ومنطقية لا يسوغه شيء سوى الايمان المطلق بأثر القبيلة والنوع والجنس وتمكنه منها في القرارة من النفس .

((قيل لهم أن العربي لا يقوى على الكثير من الاشغال التي تتطلب مجهودا جسديا هائلا ، فبيئته الصحراوية الخاملة لا تجده يسعى في رزقه إلا ما ندر وقبل أن يموت من الجوع بقليل)) [٣].

---

[١] الرواية : ٣٥.

[٢] الرواية : ٢٦.

[٣] الرواية : ٢٥.

ولأن الجندرة القومية تعني : العدالة في التعامل مع كلٍّ من الرجال والنساء بناء على الاحترام الكامل لاحتياجاتهم. لكل الأنواع والأجناس والقوميات لذلك ترتسم في الرواية تمثل السلطة الاجتماعية بوصفها يوتوبيا خاصة تسهم في تشكل القيم الاعتبارية للأنثى لدى العامة.

((دفعت باب الفناء بقوة ووقفت وسط المعزيات ثم صاحت بلكنة بيري التي تجيدها النساء القويات المتسلطات وهي تحرك كفيها متفرسة في وجوه النسوة :

بدرية ..أين بدرية ؟ أين خبأت رأسها وهل رأت ما فعلته ابنتها العايبة بأخذ أحفادي مني ؟ ابنتها المجنونة التي ابتلينا بها))[١] .

الرواية العراقية الجديدة فيها طموح كبير إلى إنشاء نوع من الرواية يحاول فيها الراوي تلمس الواقع المرئي أو او الملموس في شكل أيقونات بنائية تسهل عملية التوزيع الدقيق لمفاصل الحركة السردية للحياة دون فقدان أو خسارة أية ثيمة حتى لو كانت هامشية :

((همست قيم كأنها لا تريد لبدرية أن تسمع

-أخي أرجوك حصن الدار فلا تعود روحها تحوم فيه

- روح المسكينة لا تقلق ، القلق والخوف من المكتوب

لم تلتفت قيم لجملته في خضم قلقها وقالت مصرة

كيف لا أقلق من روحها ؟ ألم تر ما حل بجيراننا اليهود الذين ساكنوا أرواح موتاهم ، ألم تذكر كيف فرهدوا وعذبوا ثم هجروا وشردوا واينما حلوا حل بهم الخراب)) [٢].

الروائي يقدم فضاءات شاسعة للمكان أو البيئة لاسيما في التوصيف الحدثي، يعني هذه الفضاءات قد تبعده عن استئصال ذروة الحدث في حقيقته لكن في الوقت نفسه تمنحه مساحة كبيرة من الحرية في التحكم بسير الشخوص والعلامات الدالة على نوع معين وجنس محدد بذاته وهو ما كان يفتقده العمل الروائي العراقي ويصبوا اليه :

((لهذا كان الشتاء فصلا قليل الهمة والبركة كثير الأمراض والمتاعب بالنسبة للكرد ليس في (بشت كوه) وحدها بل في جميه أنحاء لورستان الموطن الأصلي لهذه الفئة من الكرد)).[٣]

وما يمكن أن يتحقق للمتلقي من أمنيات بعيدة ضئيلة نسبتها في ظل ايمانه بأن كل شيء لم يعد فيه فائدة بسبب فقدانه للأشياء الجميلة في وطن ضاع وضاعت فيه كل فرص العيش الرغيد.

---

[١] الرواية : ٢٢.

[٢] الرواية : ٤٦.

[٣] الرواية : ٢٥.

٣- الجندرة العقلية

إن مناقشة مفهوم الجندرة العقلية قد يبدو جديدا على مستوى اداء المصطلح في بيآته المعتادة ولكن من خلال تمثل دلالات المصطلح على بيآت أخرى تؤمن بان هناك ثمة أجناسا أخر تعايشنا السكنى لكن لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة هذه الكائنات التي يأتمر بحركتها وتوجيهها أجناس آخرون يمتلكون القدرة على التحكم بهم و هذه القوى هي نفسها قد تلجأ بطريقة من الطرق إلى استلاب عقل النوع الآخر ذكرا وأنثى ومصادرة وعيه ومن ثم دفعه إلى الاستسلام والخضوع التام والطاعة التامة لأهدافه ومآربه مخالفة بذلك الخلفية البيولوجية للجنسانية البشرية، وتؤكد في الوقت نفسه على صعوبة معرفة إلى أي مدى كان سلوكنا الجنسي غريزياً، نظراً لأهمية الوظائف العقلية العليا لدى الإنسان فهي الأكبر منها بكثيرٍ من نظائرها لدى الأنواع الأخرى .[١]

ولا مفر من الاعتراف فإن الرواية العراقية المصورة لطبيعة المجتمعات البدائية الحساسة ولاسيما في البيئات الشعبية المتخلفة بدفع من قوى ذكورية فاعلة فإن المتلقي فيها في الغالب يلجأ إلى الاستعانة بقوى كبرى تحميه لشعوره بالنقص التام إزاء ما يرى أو ما يشعر ولا بأس أن تكون القوى غيبية خرافية توفر للروائي أجواء من الحركة السريعة يقف خلفها الراوي ويوجه أحداثها الطوباوية بمزيد من الشوق والإثارة و بحسب ما يريد ، ورواية (قسمت) هنا هي أليق بتلك الرواية الجندرية التي تفترض التعامل المتبادل والمباشر مع شخوص السرد في استظهار القيم الشعبية واقعا لفرادتها الحاكية فهي ، هنا كانت تدعو إلى التعلق بالخرافات والشعوذة والسحر بوصفها قصا سرديا متاحا للعامة من الناس :

((وحين صحت فجأة تلوت في فراشها ومددت يدها الرقيقة إلى راسها مرددة مرات عيدة بأنه يؤلمها بشدة ثم قامت على حين غرة لتقف وسط الغرفة بدشداشتها البيضاء التي بدت فضفاضة على جسدها الضئيل ، وقد صار وجهها النحيل الغائرالعينين ينضح عرقا باردا جالت بعينيها في الغرفة لثوان ثم اتجهت مباشرة إلى القرآن الذي كان قد وضع على الرف للتبرك ، فلم يكن أي من اهلها قد تعلم القراءة والكتابة تناولته ثم فتحت صفحة منه ثم صارت تقرأ الكلام الذي فيه على مرأى ومسمع من أهلها الذين وقفوا مشدوهين يراقبون ابنتهم التي ذهبت إلى النوم قبل ثلاث ليال امية ولا تكاد تنطق العربية)) [٢].

فضلا عن التبرك بعلائم الكشف الاسطوري وشطحات الديني الذاهب إلى النوع من التبحر الصوفي الذي قد يؤدي أحيانا الى التجاوز على قيم العقل المنطق والتشبث بقوة السحر لإرعاب العامة وتخويفهم :

---

[١] الجدنرة مفهومها .

[٢] الرواية : ٤٨.

((وقد عودها على الاستفادة من تعويذاته التي يصنعها لها دون مقابل فلم تكن تدفع له نظير خدماته على أن يبطل مفعول سحره سريعا :

اعطيك الخرزة لكن آعيديها قبل المسا ء برضاك وإلا أتتك كل من شيرمينا ونيرمينا وقطعتاك ارابا واعادتا الخرزة أينما تكونين قد أخفيتها)) [١].

تبدأ قصة القطتين (شيرمينا ونيرمينا) في تبني فنطازيا غير معهودة أهميتها النفسية للمتلقي العراقي محط إثارة ، إذ إن القطط وألوانها كانت وما زالت تداعب مخيلة العراقي من حيث علاقتها بالأرواح والجن وهي التي تمنح سلطتها لأجواء القص هنا :

((ملا ..يا بيت الملا

ثم دفع الباب فكان بركة الذي دخل لاهثا مرتجفا وهو يولول

وقد طارت عباءته النسائية من كتفيه لتقع أرضا

الويل لبركة المسكين ، قليل الحظ والبخت

بقي يردد ذلك وهو يلوذ بالملأ بينما كانت كل من شيرمينا ونيرمينا تحومان حوله وتموءان كأنهما تصرخان)) [٢] .

علاوة على ذلك يمكن أن ندرج العلاقة الحميمية بين هاتين القطتين وبين بركة البصار الفاعل الرئيس في حركة القص، هذه المشهد الفنطازي لا يعطي أهمية أولى للأنثى الموبوءة بالدجل إلا من خلال المضمر النفسي المفتعل في هذه اللحظة :

((واصل وهو يمسح انفه بكم دشداشته السوداء :

شيرمينا ونيرمينا كانت خاملتين في الأيام الماضية لم تنبهاني لما كان سيحدث لم أتلق أية إشارة لأبلغ أحدا أعذروني جميعا أرجوكم أعذروا العبد الفقير بركة)) [٣] .

الراوي هنا أراد أن يوصل الحدث إلى حافة منطق هاو يتلاشى من المواجهة الأولى ويواصل انحداره ليغطي على ما تبقى من أفعال واعية في خضم تنبؤات بركة ، فهو كان قد افتعل جملة من المؤثرات العقلية لدى مواجهة أنثى تريد أن توجه فعل الحدث وجهته المقصودة في أجواء قد تبدو الى التلاشي أقرب ولا سيما في ذهنية المرأة المغلفة بعلاقة الخوف والرعب من الرجل في كل شيء :

---

[١] الرواية : ٤٤.

[٢] الرواية : ٨٩.

[٣] الرواية : ٩٠.

((منذ اليوم الأول لم تنفع أي خرزة أو حجاب من التي أعطيتها لكم ، الجو تحوم فيه روائح البارود والدماء تملأ الشوارع لن تجدي نفعا أعمال بركة قليل البخت بعد الآن))[١] .

والسارد هنا ، لا ينسى أن يمنح البعد الروائي دالة مقصودة لإسباغ نوع من التعاطف العقلي والتعالق النفسي بين القطتين وشخصية بركة البصار على الرغم من الاختلاف البيولوجي بينهما ، فالقطتان تلازمانه ليلا نهارا بل أنه كان قد أعطى لكل قطة اسمها الخاص بها قريبا أو بعيدا من مخيلة المتلقي الذي يكده التعب والجهد وهو يحاول الوصول إلى المفعلات التي تفرز رجاحة هذا التصور الإنساني في التعامل مع المعقولات المغيبة:

((واصل وهو يمسح انفه بكم دشداشته السوداء :

شيرمينا ونيرمينا كانت خاملتين في الأيام الماضية لم تنبهاني لما كان سيحدث لم أتلق أية إشارة لأبلغ أحدا أعذروني جميعا أرجوكم أعذروا العبد الفقير بركة))[٢] .

لكنه وبغية التوغل في الُاثارة أكثر وكي يمنح النص بعدا حركيا متزايدا ويخلصه من رتابة القص يذهب إلى التغول في توصيف العلاقة بين الشيخ بركة والجن على نحو ظاهر وصريح مما يؤكد العلاقة الوثقى بين نيرمينا وشيرمينا وعالم الجن في جندرة عقلية متطورة جدا :

((آخر مرة مر بركة من عند دار الملا غلام علي كانت في صيف العام ١٩٧٥ كان الوقت طهرا وقد خلت المحلة من أبنائها الذي انصرف كل واحد منهم إلى قيلولته أو اختبا في غرفته احتجاجا على حرارة ظهيرة تموز القاتلة شاهد بركة في أثناء مروره شبح الرجل ذي الجراوية والصاية ذات اللون السكري جالسا عند عتبة الباب فالتفت إليه قائلا بعربيته الركيكة عيني انت ما يمل ما يتعب ، اش عندك هنا هيجي وقت)) [٣] .

أظن أن الفعل الروائي الذي استجلب شخصية بركة بوصفها شخصية جندرية ملوثة بكثير من تقانيم الشعودة والخوف هو الذي وضع الروائية أمام خيار واحد لا رجعة فيه إلا وهو شحن أجواء هذ القص بأفانين من عوالم الخوف والرعب المفتعل في صناعة جندرة تبدو وكأنها ليس في مكانها وزمانها ولاسيما أن الروائية كانت قد صممت حركة الأداء في الرواية في هذا الجزء على نحو غريب يحقق الرضا في الجمع بين هواجس الرجال والنساء بوصفهما عالمين متقابلين بينهما كثير من المواجهة والمجابهة التي تحاول أن تسري قوانينها

---

[١] الرواية : ٩٠.

[٢] الرواية : ٩٠.

[٣] الرواية : ١٢٨.

على بيئة مختلفة ومتخلفة ، والروائية إذ تجتهد في خدمة الحركة الروائية تعاني في الوقت نفسه من شد سردي يصرعلى نمذجة المكان لأنها تحاول أن تتأسس فيه لاسيما إذا كان ذلك المكان نظاما مقدسا يحتل تابوهات موغلة في فنطازيا الآخر .

الخاتمة

ما أردت قوله أن رواية قسمت لحوراء النداوي بمستوى هذا التطور في تجانس الأحداث وفي تطوير الشخوص والحركة السردية النشطة في بنائها لتدلل على أنها رواية انثوية يمكن أن تعد نموذجا لأنثى طاحنة تعتلك الأمرين في مواجهة السياسة والدين .

إن رواية (قسمت) عالم من مجاهيل انثوية توزعت بين الرؤى والاشباح والقطط ورجال الدين الملوثين بالشعوذة والدجل، إنها رواية اتخذت معايير اجتماعية ودينية وعقدية متخالفة استطاعت أن تشكل نسيجها جندرتها من خلال التفاعل البناء بين قيم اجتماعية منهارة أو تكاد وبين رؤى أخرى تكاد تتشكل على يد الروائية حوراء النداوي في نظرتها الى جانب أكثر ما تحيل فيه الى جمالية مكتنزة في جانب من وعي المرأة .

ثبت المصادر

❖ رواية (قسمت)، منشورات الجمل، بغداد – بيروت ، ط١ ، ٢٠١٨.